مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مَجَلَّةٌ - إِسْلَامِيَّةٌ - ثَقَافِيَّةٌ - جَامِعَةٌ - مُحْكَمَةٌ

تَصْدُرُ سَنَوِيًّا عَنْ

كُلِّيَّةُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

العددان التاسع والعشرون والثلاثون

لسنة 1436 - 1437 الهجرية الموافق: 2015 - 2016 الميلادية

لمحة عن المسالك والعلاقات التجارية

بين مدن وواحات جنوب ليبيا وجنوب الصحراء الإفريقية

(185 - 986هـ / 801 - 1578م)

د. عبد الله محمد عبيد الحواسي

جامعة الجبل الغربي - ليبيا

لقد تطوّرت العلاقات التجارية والثقافية بين جنوب وغرب ليبيا وبين جنوب الصحراء[1] حيث تأسّس ما يعرف بالتجارة عبر الصحراء التي نقلت الإسلام ومبادئه ومفاهيمه إلى تلك البلاد.

وترجع أهمية هذا البحث إلى دور مدن وواحات جنوب ليبيا من خلال موقعها الجغرافي المتمثل في كونها محطات القوافل الصادرة والواردة إلى جنوب الصحراء الأفريقية، وبوابة إفريقيا، لنشر العقيدة والثقافة الإسلامية بالتبادل التجاري، وذلك لتأكيد روح الإسلام السمحة، ونفي ما أشيع عن الإسلام افتراء من أنه انتشر بالقوة وبحدّ السيف، هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى، بيان أثر التجارة والاختلاط مع الدول الإسلامية في نقل الحضارات المتقدمة ونشر الأفكار المستنيرة عبر مجاهل الصحراء الكبرى، حيث قام التجار والدعاة بدور نشط وفعّال في تبادل الأفكار مع تبادل السلع، كما كان

(1) منطقة جنوب الصحراء الكبرى تقع بين المحيط الأطلسي غرباً، وحوض بحيرة تشاد شرقاً، والصحراء الكبرى والمناطق شبه الصحراوية شمالاً، وجنوباً يحدّها منطقة الغابات الاستوائية، وهي المنطقة التي اصطلح على تسميتها «السودان الغربي».

لهم دور مهم في تطوير الأفكار وتغيير المعتقدات البالية، التي كانت سائدة بين أهالي جنوب الصحراء.

وقد وقفت الصحراء الكبرى حائلاً بين السودان الغربي، وبين المدن الجنوبية والغربية لليبيا ورغم امتدادها إلا أنها لم تكن من الصعوبة بمكان بحيث لا يمكن اختراقها، فقد استطاع التجار على ظهور الإبل عبر طرق القوافل، الوصول إلى المراكز والمدن القابعة جنوب الصحراء، تحوّلت فيما بعد إلى منارات مزدهرة تجارياً وثقافياً.

ترجع علاقات ليبيا التجارية مع أفريقيا إلى عهود سحيقة، فقد ذكر هيرودوت، أن ليبيا كانت على اتصال بتلك البلاد، وسيّرت القوافل التجارية.

كما أشار المصدر نفسه إلى تجارة الرقيق التي كان يزاولها الليبيون ومطاردتهم للأحباش، وكانت قرطاجنة تقوم باستيراد الرقيق من فزّان[1].

والجدير بالذكر أن الإسلام لم يدخل المنطقة بقوة في وقت مبكر، فالبدايات كانت متواضعة يصعب تحديدها وملاحقتها زمنياً عبر تلك الطرق التي كانت تربط الشمال بالجنوب أو معرفة أولئك الذين أسهموا في نشر الإسلام في تلك الربوع خاصة أن مدن السودان الغربي لم تخضع في العصور الإسلامية لحكومة مركزية في دمشق أو بغداد، حتى يمكن الوقوف على جهود الحكومة المركزية في نشر الدعوة الإسلامية.

وبفضل شبكة الطرق الصحراوية التي تربط شمال وغرب وشرق أفريقيا، كان أول اتصال إسلامي عربي ببلاد السودان عبر ليبيا بحكم موقعها الجغرافي وكثرة الطرق المتجهة إلى الجنوب.

فبعد أن أتمّ القائد عقبة بن نافع فتح ودّان وفزّان وأقاليمها عام 46هـ-646م اتجه جنوباً حتى وصل إقليم كوار واستكمل فتح هذه المنطقة

(1) هيرودوت، هيرودوت، 1886م، **تاريخ هيرودوت**، ترجمة حبيب بسترس، بيروت، ج1، ص327.

بدخول عاصمتها خوار أو خاوار[1]. وهناك من ذهب إلى أن القائد عقبة بن نافع قد فتح التكرور وغانا[2]، وذكرت مجموعة من المصادر بأن عقبة وصل إلى منطقة كيدال شمال مالي وأسّس مدينة السوق وسكانها هم من نسل بقايا جيشه الذين تركهم هناك[3].

ومنهم من ذكر أنه وجنده وصلوا إلى كانم برنو[4]، فقد اتجه القائد عقبة ابن نافع وجنده حتى وصلوا كَوَارْ[5] التي تُعَدّ باباً من أبواب السودان عبر الطريق الذي كان يربط ساحل طرابلس بكانم مروراً بفزان[6]. ومن ثَمّ أصبح

(1) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، د-ت، **فتوح مصر وأخبارها**، مكتبة المثنى، بغداد، ص194.

(2) التكرور هذا الاسم غير شائع في إفريقيا ولكنه شاع في بلاد الحرمين ومصر وغيرهما انظر: بلو، محمد، 1964م، **إنفاق الميسور في ذكر بلاد التكرور**، إدارة الوثائق والمكتبات، مصر، ص23. وانظر: البكري عبد الله بن عبد العزيز، 1911م، **المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب**، دي سيلان، باريس، ص179.

(3) مجهول، **خبر السوق**، مخطوط، مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية، تنبكتو، رقم: 1770، كذلك محمد محمد المفتي مرحبا، **التاريخ الخاص بالتوات**، مخطوط، معهد البحوث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم: 150، ورقة: 24. وانظر محمد بن عثمان بن فودي، **نسب الفلان**، مخطوط، معهد البحوث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم: 2086، ورقة: 2. وانظر مجهول، **مكتوب في أن عقبة بن نافع هو جد الفلان**، مخطوط، معهد البحوث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم: 971.

(4) أ.م كاني، 1981م، "مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال أفريقيا ووسط السودان"، **مجلة البحوث التاريخية**، السنة الثالثة، العدد الأول، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ص10.

(5) كَوَارْ، ناحية واسعة من جنوب فزان، بها مدن كثيرة، وبها عندهم أسواق ومياه جارية ونخل كثير، وافتتحها عقبة بن نافع. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت 1957م، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ج2، ص38. وهي تقع الآن في الحدود الليبية النيجيرية ولا زالت تحمل نفس التسمية وعاصمتها (بلما) وكانت من أهم مراكز التجارة الصحراوية مع طرابلس بما وراء البحر. وانظر: البكري، المصدر السابق، ص156.

(6) عبد الظاهر، حسن عيسى (1412هـ/ 1991م)، **الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفلاني**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ص69. كما ذكر أن عقبة تزوج من الفلانيين.

هذا الطريق قناة هامة للاتصال بين ليبيا وكانم برنو «بلاد الهوسا»[1]، ومناطق أُخرى من جنوب الصحراء.

وهناك بعض المراجع التي تشكّك في وصول القائد عقبة إلى جنوب الصحراء الأفريقية بحجة أنه لا يمكن أن يفتح تلك البلاد ويعود في أقل من سنة ليستقر في برقة[2].

بذلك يكون عقبة قد عرف بلاد السودان وخبرها فعند ولايته الثانية اتجه إلى بلاد جنوب الصحراء من جهة المغرب الأقصى «وغزا بمن معه إلى السوس فتجوّل في بلادهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله»[3].

ويقول عنه ابن عذارى: «إنه نزل من درعة إلى بلاد صنهاجة»[4].

ويقول ابن خلدون: «أجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية، ولم يدينوا بالنصرانية فأثخن فيهم... وقاتل مسوفة من وراء السوس وسبى منهم وقفل راجعاً»[5].

وبعد استشهاد عقبة بن نافع سنة 63هـ-683م، تولّى من بعده موسى بن نصير الذي بدأ في إرسال الدعاة والفقهاء إلى جنوب الصحراء الإفريقية إلى أن جاء القائد عبد الرحمن بن حبيب الذي قام بحفر العديد من الآبار على الطريق العابر للصحراء.

ومهما يكن، فإن استقرار الإسلام بالشمال كافٍ بالتعريف بالإسلام

---

(1) بلاد الهوسا أو الحوصا كان يظن إلى عهد قريب أن قبائل الهوسا تمثل جنساً كائناً بذاته ولكن تبين أن الهوسا اصطلاح لغوي يطلق على جميع الشعوب التي تتكلم الهوسا، مجموعة ممالك أهمها، سكتو، كانو، زاريا، باوتشي، كاتسينا. حسن، حسن إبراهيم، 1963م، **انتشار الإسلام في القارة الأفريقية**، دار النهضة، القاهرة، ص116.

(2) عبد الحميد، سعد زغلول 1999م، **تاريخ المغرب العربي**، منشأة المعارف، الإسكندرية، صفحات 184-188.

(3) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص198.

(4) أبو عبد الله، 1983م، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان وليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، ص27.

(5) خلدون، عبد الرحمن، **تاريخ ابن خلدون**، ج6، ص217.

ونشره على أيدي التجار والدعاة عبر تلك الطرق، خاصة بعد أن أسلم الملثّمون وكونوا دولة إسلامية مجاورة لبلاد جنوب الصحراء منذ القرون الأولى للهجرة النبوية، حيث أقبل غالبية سكان بلاد جنوب ووسط الصحراء بمرور الزمن على الدخول فيما جاء به التاجر أو الداعية المسلم من دين ومظاهر حضارية. وربما يعود سبب هذا الانصهار الذي جعل من سكان تلك المناطق أكبر قوة إسلامية في أفريقيا، إلى أن تكوّنت بين كلٍّ من العرب والأفارقة رابطة عرقية وعنصرية، فضلاً عن أن التجار والدعاة من أهل الشمال لم يكونوا عنصريين بل كانوا منفتحين مع الأفارقة.

وقد سارت القوافل الخارجة من ليبيا والمتجهة إلى بلاد السودان عبر الطرق الآتية:-

1 - الطريق الممتد من غدامس إلى غات[1] وممالك الهوسا، فالقماش الذي كان ينسج في كانو كان شائعاً بصفته عملة في تنبكتو، وقد استورده تجار غدامس من كانو إلى غات التي كانت سوقاً صحراوياً ضخماً، ومنها كان يتجه إلى عين صالح ومنها جنوباً مرة أُخرى إلى تنبكتو[2].

2 - الطريق الممتد من طرابلس إلى فزان[3] وكوار إلى برنو في الشرق وهو أسهل طرق القوافل، سلكه عقبة بن نافع سنة 51هـ-666م[4]. واشتهر

(1) غات أصلها «رات» ثم حرفت إلى غات وهي مدينة قديمة بالصحراء الليبية الجنوبية. الطرابلسي، أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون، **التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار**، صححه وعلق عليه الطاهر الزاوي، المكتبة السلفية، القاهرة، 1349هـ، ص113.

(2) رياض، زاهر رياض، **الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا**، دار المعرفة، القاهرة، 1964م، ص306.

(3) فزان: بفتح أوله وتشديد ثانيه وآخره نون، ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب وهو في الإقليم الأول وعرضه إحدى وعشرون درجة قيل: سُمّيت بفزان بن حام بن نوح عليه السلام بها نخل كثير وتمر كثير ومدينتها زويلة السودان. الحموي، مصدر سابق، ص1329.

(4) هانس فايس، د. ت، **الصحراء الكبرى في ضوء التاريخ**، ترجمة مكاييل محرز، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ص183-184.

هذا الطريق بطريق الملح، إذ كان يحمل عليه كميات كبيرة من الملح، المتجه جنوباً من بلما، كما كان طريقاً رئيسياً للرقيق، إذ كان الرقيق يخرج من بلدة زويلة التي تقع بين المغرب والقبلة إلى ناحية أفريقيا، وأن أهل هذه البلدة يتبايعون بثياب قصار حمر والمسافة بين زويلة وكانم أربعون مرحلة، وبين زويلة وأجدابيا أربع عشرة مرحلة[1].

3 - كما خرج من طرابلس طريق آخر إلى واحات فزّان ماراً بجبل نفوسة الذي كانت تقطنه الإباضية، ومن فزّان التي تبعد تقريباً عن طرابلس 700 كم إلى مرزق ويتجه إلى مدن جنوب الصحراء، كما يتفرّع منه طريق إلى السودان الأوسط ببحيرة تشاد الذي يُعَدّ الشريان الرئيسي لنشر الحضارة الإسلامية في مملكة كانو برنو.

وعلى هذين الطريقين أيضاً ازدهرت تجارة الخيول، حيث كان تجار العرب المغاربة[2] الذين يعيشون في ليبيا يجلبون الخيول إلى مملكة البرنو، كي يبادلوها بالعبيد، فيكون ثمن الحصان الواحد خمسة عشر عبداً أو عشرين، وكان الملك يقوم بواسطة هذه الخيول، بحملة ضد العدو، وعند عودته كان يجلب معه ما يكفي من العبيد ليسدّ ثمن الخيول[3].

كما شكّلت مدينة غدامس نقطة التقاء وانطلاق للقوافل التي تصلها عبر الشبكات الرابطة بين الشمال الأفريقي، والسودان الغربي والأوسط، التي

(1) البكري، مصدر سابق، ص11.

(2) رأينا من المناسب إطلاق لفظ العرب المغاربة بدل البربر؛ لأنه مصطلح أطلقه البيزنطيون على من هم خارج حدود مملكتهم من سكان شمال إفريقيا ومن الشعوب الجرمانية والمغولية ويقصدون بها الشعوب الأقل منهم مرتبة وحضارة، وأصل الكلمة هي (بار بار كوم) بمعنى بلاد البربر. أو ربما أطلقها الإغريق على الشعوب غير الناطقة باللُّغة الإغريقية. انظر: الجيلاني، عبد الرحمن الجيلاني، **تاريخ الجزائر**، بيروت، 1965، ص48. مثل ما أطلق العرب على الروم والفرس والترك... إلخ لفظ الأعاجم. فأطلق سكان الشمال الإفريقي على أنفسهم لفظ (أمازيغ) بمعنى الأحرار. أحمد صقر، د. ت، **مدينة المغرب في التاريخ**، دار سلامة للنشر، تونس، ص34.

(3) الزياتي، الحسن الوزان، **وصف أفريقيا**، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ط2، القسم الأول، ص71.

كانت تدبغ فيها الجلود الغدامسية وهي من أجود أنواع الجلود، كما يحمل منها الأقمشة الملوّنة، والنحاس والورق، . . . إلخ إلى السودان الغربي، حتى سُمّيت بمدينة القوافل، لشهرتها بالتجارة، وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن هذه المدينة لم تحظ بما تستحقه من الكتابة التاريخية، خصوصا أن معظم سكانها في العصور الوسطى كان اهتمامهم منصباً على التجارة والبيع والشراء، ولم يهتموا بالتدوين ولم يتعوّدوه إلا في المعاهدات والعقود التجارية، ومع ذلك فالمدينة لم تأخذ حقها التاريخي المتعلّق بالحركة التجارية والفكرية.

كما أن ابن بطوطة وكما هو معروف قد سافر في بلاد جنوب الصحراء صحبة إحدى القوافل الليبية الغدامسية، كما كانت مدن فزان ومنها، مرزق[1]، وزويلة[2] تقوم باستقبال القوافل التجارية، وإرشادها عند المغادرة، مع توفير كامل الاحتياجات لها من الخدمة اللازمة. وفي هذا الصدد حظيت مدينة زويلة بأهمية كبيرة في طرق القوافل إلى السودان حتى قيل عنها إنها باب من أبواب السودان.

وتُشير بعض المراجع إلى أنه في السنوات 415، 425، 437هـ، كان قد سُكّ الدِّينار بمدينة زويلة، وهذا يرجع إلى كثرة الذهب القادم إليها من بلاد جنوب الصحراء[3].

وكانت فزّان وواحاتها ملتقى عدة طرق رئيسية تربط بين غرب أفريقيا ووسطها من جهة وبين الشمال والجنوب الأفريقيين من جهة أُخرى:

(1) مرزق، عاصمة بلاد فزان تقع جنوب غربي سبها. الزاوي، الطاهر أحمد، **معجم البلدان الليبية**، مكتبة النور، طرابلس، 1968، حرف الميم.

(2) زويلة من أطرابلس بين المغرب والقبلة ويجلب من زويلة الرقيق إلى ناحية إفريقية ومبايعاتهم بثياب قصار حمر ومن بلد زويلة إلى بلد كانم أربعون مرحلة. ياقوت الحموي، مصدر سابق، ص909.

(3) حامد، سعيد علي، "المسكوكات العربية"، **مجلة آثار العرب**، تصدرها مصلحة الآثار بالتعاون مع مشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة طرابلس، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الجماهيرية، 1991م، العدد الثاني، مارس، ص99.

1 - طريق ينطلق من أقاليم كانو وكاتسينا مروراً بمنطقة الآيير ثم فزان وأوجلة[1] حتى القاهرة.

2 - طريق يبدأ من عاصمة برنو «بيرني جامو» ويتجه شمالاً عبر واحة بلما حيث يلتقي مع الطريق الأول في فزّان[2].

3 - طريق يقع شرق الطريقين المذكورين ويربط عاصمة واداي بطرق أُخرى تلتقي بفزّان[3].

4 - طريق يخرج من برقة إلى الكفرة، ومنها إلى واداي، ثم إلى الفاشر عاصمة دار فور، وهناك يلتقي بطريق درب الأربعين الذي يتجه شمالاً إلى بئر النطرون فواحة الداخلة والخارجة[4]، ثم إلى أسيوط شمالاً[5].

5 - طريق أوجلة إلى جاو، ويبدأ هذا الطريق من أوجلة وزلة وودان إلى بلاد التكرور حتى يصل إلى كوكو[6].

6 - طريق فزّان إلى أغاديس وهو الذي يرجّح أنه أول طريق سلكه العرب عبر الصحراء وهو أقصر الطرق إلى الصحراء.

7 - طريق غدامس تادمكة، ومن تادمكة إلى طرابلس مرورا بغدامس[7].

---

(1) أوجلة: مدينة في جنوبي برقة نحو المغرب، وهي عامرة كثيرة النخيل، وأوجلة اسم الناحية، واسم المدينة أزراقية، وأوجلة قرى كثيرة ولها أسواق ومساجد. ياقوت الحموي، مصدر سابق، مج1، ص276.

(2) للمزيد من دور فزّان في حركة التواصل بين الشمال والجنوب، انظر: جامي، عبد القادر، **من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى**، ترجمة محمد الأسطى، قدمه على المصراتي، دار المصراتي للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس، 1974م، ص93 وما بعدها.

(3) زاهر رياض، مرجع سابق، ص308.

(4) واحة الخارجة. تقع قريبة من النيل، وأهلها مكرّمون للتجار ينزلون على أحكامهم في الأرباح ويقصدها التجار من بلاد النوبة ومن مصر، والمسافة واحدة. النصيبي، أبو القاسم بن حوقل، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979م، ص144-145.

(5) زاهر رياض، مرجع سابق، ص308 وما بعدها.

(6) الإدريسي، الشريف، 1864، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ليدن، ص132.

(7) البكري، مصدر سابق، ص164.

8 - طريق ينطلق من جبل نفوسة إلى زويلة، وإلى جنوب الصحراء وهو نادر المياه.

9 - طريق يبدأ من الأراضي التونسية يسير إلى الجنوب مارّاً بغدامس وغات وأغاديس، ثم يتجه إلى الغرب مارّاً بتكدا، إلى جاو على نهر النيجر، وينتهي بتنبكتو.

كما خرج من مصر طريقان يتصلان بليبيا ومن ليبيا يتابع الركب سيرهم إلى السودان الغربي أو الأوسط، أو السير إلى بلاد المغرب، ومنها إلى البلاد الواقعة جنوب الصحراء والطريقان هما:

1 - الطريق الأول، يبدأ من مصر إلى ليبيا ومنها إلى بحيرة تشاد، مارّاً بمدينة أغاديس، التي كانت مركزاً تجارياً عظيماً، كما كانت موقع تقاطع الطريق التجاري بين شمالي إفريقيا وبحيرة تشاد.

2 - الطريق الثاني، وينطلق من الفسطاط، ثم إلى الساحل، ثم إلى ترنوط، وإلى كوم شريك، ومنها إلى الإسكندرية، ويبدأ السير حتى برقة. ومن برقة يبدأ طريق آخر إلى المغرب حيث مدينة المخالي وسط المغرب[1].

وكانت القوافل الخارجة من شمال إفريقيا والمتجهة إلى جنوب الصحراء تصل في بعض الأوقات، إلى اثنى عشر ألف جمل، أي ما يوازي ثلاثين سفينة من سفن ذلك العصر، وقد حمل التجار معهم مصنوعات حازت إعجاب السلاطين[2].

واستندت الرحلات على أسس اقتصادية وتخطيط محكم، فهم لا يرتحلون إلى بلاد السودان وقت الجفاف، حيث يندر الماء وتقلّ المراعي، مما يجعل دواب النقل غير قادرة على مواصلة السير، كما يصبح من غير الممكن شراء العبيد لصعوبة السفر، فالتجار الذين يسكنون صحراء ليبيا،

(1) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله، د. ت، **كتاب المسالك والممالك**، مكتبة المثنى، بغداد، ص84-85.

(2) زاهر رياض، مرجع سابق، ص74.

ويتاجرون مع السودان لا يرتحلون إلا إذا تبدّل الطقس واستمرت الأمطار، فإن ذلك يؤدي إلى وفرة العشب، وحينئذ نجد في صحراء ليبيا العديد من البحيرات كما يكثر الحليب.

ولا شكّ في أن هذه الطرق يسّرت للحجيج سبلهم كما عرّفت العلماء والفقهاء الطريق إلى أفريقيا، وبها أيضاً عرف الطلاب الأفارقة طريقهم إلى الجامعات العربية الإسلامية في شمال أفريقيا والمشرق. فقد كان الحجّاج يفضّلون طريق تنبكتو إلى جاو ومنها إلى غات بليبيا، ثم إلى واحة غدامس ومنها إما يتجه شمالاً إلى طرابلس، أو من غدامس يتجه شرقاً إلى الإسكندرية وهو الطريق الأكثر استخداماً لقبائل جنوب الصحراء الإفريقية، لأمانه وإتاحته للحجّاج فرصة التجارة أثناء رحلتهم، كما كان حجّاج جنوب الصحراء يفضّلون مرافقة حجاج بلدان المغرب الكبير مما يتيح لهم فرصة أكبر للاندماج والتعارف.

وعُرف عن التجار الليبيين حسن كرمهم للحجّاج واستضافتهم لسلاطين جنوب الصحراء عند ذهابهم إلى الحج أو عند عودتهم، وهذا يرجع غالباً إلى الموقع المتميّز للمدن والواحات الليبية الصحراوية، فهذه المدن والواحات كانت محطّ التجار والحجّاج واستراحتهم، ومنها يأخذون زادهم واحتياجاتهم، فهي حلقة الوصل مع جنوب الصحراء، منها الكفرة وفزّان وزويلة[1].

فكانت تخرج من غرب أفريقيا قوافل عديدة على رأسها ملوك وسلاطين هذه البلدان الذين كانوا يحرصون على أداء هذه الفريضة رغم ما كانوا يتكبّدونه من مشاق ومتاعب نظراً لطول الطريق ومخاطره ووعورته، فلقد تعرضت قافلة منسا موسى عند العودة قبل الدخول إلى ليبيا إلى عملية للنهب ولكن لم تحصل أضرار كبيرة.

(1) الفيتوري، أحمد سعيد، **ليبيا وتجارة القوافل**، الإدارة العامة للآثار، طرابلس، 1972، ص13 وما بعدها.

كما نجد أن تجار فزّان وغدامس وأوجلة وزويلة و جبل نفوسة قد احتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة في المدن التي حلّوا بها، وهذا راجع إلى حسن تعاملهم مع أهل السودان، فقد كان للجالية الغدامسية حيّ خاص بها في مدينة تنبكتو، وكان بهذا الحي مسجد وعدة مدارس لتحفيظ القُرآن والحديث وعلوم الدِّين[1].

ومن ليبيا رحل العديد من العلماء وكان لهم دور كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية، منهم على سبيل المثال الشيخ «منصور الفزّاني» والعالم «علي الجذوري»، كما أن منسا موسى لقي في طريق عودته من الحج الفقيه «عبد الله الكومي» في غدامس، فاصطحبه إلى بلاده ليستفيد من ثقافته وخبرته[2].

كما أن طبيباً يسمى «عبد الحميد الفزّاني» قام برحلة إلى السودان جنوب الصحراء في القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي[3].

ويذكر عبد الرحمن السعدي أن الشيخ السيد منصور الفزّاني كان إمام المسجد الجامع بتنبكتو[4].

وذكر المصدر نفسه أنه عند دخول الغزو المراكشي إلى تنبكتو طافوا في تنبكتو وطالعوها ووجدوا أكبر عمارة فيها حومة الغدامسيين فاختاروها للقصبة[5].

---

(1) المقريزي، تقي الدين أبو العباس، **الذهب المسبوك فيمن حجّ من الخلفاء والملوك**، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1935م، ج5، ص112.

(2) عيسى: محمود خيري، د. ت، **العلاقات العربية الأفريقية**، معهد البحوث الدراسات الأفريقية، القاهرة، ص73.

(3) الحرير، إدريس صالح، "العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء"، **مجلة البحوث التاريخية**، السنة الخامسة، العدد الأول، منشورات جامعة الفاتح، 1983م، ص86.

(4) السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله، **تاريخ السودان**، تحقيق السيد هوداس وتلميذه بنوة، محروسة بارير، باريس، 1981م، ص58.

(5) المرجع السابق، ص142.

وعن المكانة الاجتماعية لليبيين في مدن جنوب الصحراء، فقد ذكر المصدر نفسه أن القاضي أبا البركات الذي تولى قضاء تنبكتو وعمره خمس وثلاثون عاماً، ومكث في القضاء خمسة وخمسين عاماً ولما سلّمها في آخر عمره، واعتزل الناس والدنيا، وكان شيخاً جليلاً ناهز التسعين من عمره، ولم يرجع إلى الإمامة والصلاة بالناس إلا في وفاة أبي القاسم التواتي، وفي وفاة الشيخ فياض الغدامسي حيث صلّى على جنازتهما[1].

كما تزعّمت صنغاي في البداية عائلة ضياء الأمازيغية الطرابلسية، وهي التي تتزعّم قبائل لمطة وهوارة القاطنة في طرابلس الغرب، ثم انتقل الحكم بعدها إلى عائلة سني التي هي فرع من عائلة ضياء سالفة الذكر[2].

ومؤسسها الملك سني علي ويعتقد أنه اتخذ هذا اللقب ليظهر نفسه ملتزماً بسنة رسول الله ﷺ، ويرى فريق آخر أن أسرة ضياء تعود إلى سلالة الزغاوة الذين تعود أصولهم إلى منطقة فزّان بجنوب ليبيا[3].

فهذه الإشارات تشير بكلّ تأكيد إلى العلاقات الوطيدة بين ليبيا وشعوب جنوب الصحراء الكبرى. ولا يمكن بأي حال من الأحوال حصر العلماء الذين رحلوا إلى جنوب الصحراء من ليبيا أو شمال إفريقيا، ولكن يمكن القول إنه كان لهؤلاء العلماء الذين وفدوا في ركاب القوافل، كلّ الاحترام والاهتمام والرعاية من الملوك والحكّام في جنوب إفريقيا.

وعن أهم السلع المتبادلة، كانت قاعدة التجارة الخارجة لشمالي أفريقيا هي تجار السودان، ويمكن اعتبار غدامس وفزّان وزويلة موانى صحراوية

(1) المرجع السابق، ص75.

(2) السعدي، مصدر سابق، ص72. زبادية، عبد القادر، **الحضارة العربية والتأثير الأوروبي دراسات ونصوص**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص26.

(3) عوض الله: محمد الأمين، **العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين مالي وصنغاي**، جدة، 1979، ص66.
اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن أبي واضح، د. ت، **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر بيروت، ج1، ص191. عبد القادر زبادية، مرجع سابق، ص26.

يدخل التجار عن طريقها إلى السودان محمّلين بأهم البضائع وهي الملح بالإضافة إلى نسيج جبل نفوسة، وقفصة، والجريد. . . إلخ.

ويعودون بالتبر والريش والجلود. . . ، إلخ، وأن رخاء مدن الساحل متوقف على استمرار العلاقات مع السودان، ومن هنا تأتي أهمية المسالك ونفوذ من يحرسها[1].

وقاموا بدور الوسيط في تجارة الذهب الدولية مع أوروبا وغيرها.

حيث كان الذهب هو الدافع الرئيسي وراء الاحتكاك السلمي بين تجار شمال أفريقيا وسكان بلاد جنوب الصحراء، ويأخذ التجار فيما بعد على عاتقهم تصدير التبر إلى الجزيرة العربية ومصر والأندلس وبعض دول أوروبا، وعن أماكن وجود الذهب ومواسم استخراجه وكيفيته، ومن يقوم بجمع التبر يمكن مراجعة الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بالإضافة إلى كتاب الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا لزاهر رياض، وابن بطوطة في رحلته.

الملح وهو من السلع نادرة الوجود في السودان، ولا يمكن الحصول علي الذهب عادة إلا بمبادلته بالملح. ولأهمية الملح بالتصدير إلى بلاد السودان نشأت مراكز تصديره على أطراف الصحراء وقامت بتوزيعه على المدن التي تحتاج إليه.

ويحمل التجار الملح إلى أهل السودان على الجمال، وإذا وصلوا باعوه وزناً بوزن الذهب، وربما باعوه وزناً بوزنين[2].

والدليل على أنه كان للتجار الليبيين حضور واضح ومميّز في تجارة الملح مع السودان الغربي، ما وصل إلينا من وثائق، هذه الرسالة واحدة

(1) العروي، عبدالله، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994م، ج2، ص48.

(2) الغرناطي، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم، **تحفة الألباب**، باريس، 1935، ص72.

منها، جاء فيها: «الحمد لله وحده وصلّى الله على محمد وسلم زمام ما علمنا في غارب عزم... ما ذكره الحاج محمد بن أحمد مغورا الغدامسيات أربعمائة حجرة مائتان حجرة من الحاج محمد بن با أحمد، ثم مائتا حجرة من محمد مغورا متاعك... عشرين حجرة... معه ليشتري أحدهما بالملاحق الحرير، والأُخرى بما ينفعني»[1].

والجدير بالذكر أن الأرض الليبية لم تشتهر بكثرة إنتاج الملح بالدرجة التي اشتهر تجار ليبيا بالتجارة فيه، حيت انتعشت هده التجارة وحقّق التجار من ورائها الخير الكثير.

بالإضافة إلى العديد من السلع الأُخرى مثل الجلود التي كانت تخرج من غدامس، والأقمشة والكتب وعلى رأسها صحيح البخاري وصحيح مسلم، والشفاء للقاضي عياض والموطأ للإمام مالك ومختصر خليل والألفية والمدونة... إلخ[2]. كما تباع أيضاً مخطوطات كثيرة تأتي من الشمال، وتدرّ أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع[3].

ونشطت التجارة في الداخل والخارج وصارت لها فرق تجوب الصحراء، وقد اتسمت هذه التجارة بلون حضاري منظّم نلاحظه في تشكيل المدن والأحياء الراقية والمساجد، فقد أخذ الإسلام طريقه وبالتدريج إلى هذه المناطق التي تحوّلت في النهاية إلى إمبراطوريات وممالك إسلامية زاهرة مثل مالي وتنبكتو وصنغاي... إلخ. وفي أسلوب التعامل التجاري حيث كان التاجر المسلم يجمع بين دعوته وتجارته بالكلمة والسلوك وحسن العلاقة والصلة بمن يتعامل معهم فيثقون به ثقة كاملة إلى درجةٍ استطاع التجار معها

(1) الدالي، الهادي المبروك، **العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الإفريقي**، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، طرابلس، 1991م، ص324.

(2) للمزيد راجع: السعدي، مصدر سابق، ص38. كذلك: الهادي الدالي، مرجع سابق، ص114.

(3) الزياتي، مصدر سابق، ص166 وما بعدها.

أن يدخلوا الملوك في الإسلام وعملوا فيما بعد على توثيق صلتهم بالخِلافة الإسلامية.

يتضح مما سبق أن بلاد جنوب الصحراء قد تفاعلت بصورة إيجابية في تأثّرها بالإسلام والحضارة الإسلامية عبر فترة طويلة حيث هاجر من ليبيا على مرّ الزمان، فيض بشري، حمل معه نتاج الحضارة الإسلامية، مما كان له الأثر الأكبر في تطوّر هذه المنطقة في مختلف المجالات. وكان للعلاقات التجارية والثقافية فيها دور ترك آثارا واضحة في تلك البلاد، وذلك يعود إلى سماحة التجار والدعاة في تعاملهم مع أهالي تلك البلاد التي وفّر لهم ملوكها وحكامها الحماية والرعاية، وسادت في ربوعها مظاهر الحضارة الإسلامية في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدِّينية، وهذا يفنّد ما يدعيه الغرب من أن شعوب أفريقيا لم تعرف التطوّر إلا مع وصول الرجل الأوروبي.